عنوان المداخلة: الأنا والآخر في الرواية العربية اختلاف أم لقاء؟

the self and the other in the arabic fiction; diversity or acceptance?

الدكتور: هشام تومي

كلية الآداب واللغات

جامعة: عباس لغرور -خنشلة

تمهيد:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى مقاربة الخطاب الروائي حول ما يمكن أن يرتبط بقضية الأنا والآخر وتحديدا إشكالية تحقق اللقاء بينهما. خاصة أن الآخر لطالما نُظر إليه في الرواية العربية على أنه هو الجحيم وفقا للمقولة ذائعة الصيت التي قالها سارتر: الآخرون هم الجحيم، هذا يستند دون شك إلى العلاقة التي تَأَتَتْ عن طريق الخلفية التي كونتها الأنا (الذات) عن الآخر، خاصة فيما يتعلق بالفترة الكولونيالية التي ميزتها نظرة التعالي والتباهي في مقابل الدونية والاحتقار للأنا المستَعْمَر.

أما عن الروايتين -محل الدراسة- (اليهودي الحالي لعلي المقري "كاتب يمني"، وأربعون عاما في انتظار ايزابيل لسعيد خطيبي "كاتب جزائري") فإن القارئ يجد ميزة مختلفة في التعامل مع الآخر حيث يسود جو الحوار الباعث على إرساء ومد جسور تواصل بين الأنا والآخر، فيصبح الآخر إيجابيا ومنحازا لهُوية الأنا، كما هو الحال في رواية اليهودي الحالي التي عمد صاحبها إلى التقريب بين فاطمة المسلمة وسالم اليهودي عن طريق علاقة حب تنتهي بالزواج، لكن الجميل في الأمر أن التعرف على الآخر كان عن طريق توظيف وسائل المعرفة دون الإرتكان لما هو متوارث لدى الأنا عن كون اليهودي مرتبط لا محالة بالصهيونية بكل ما تعنيه من غطرسة وتطاول، وفي رواية: أربعون عاما في انتظار ايزابيل نجد الاشتغال على هوية الآخر بتقديم شخصية أصلها فرنسي ممثلة في الحاج جوزيف الذي يعتنق الاسلام ويحكي قصته وقصص أخرى في الجزائر وتحديدا في بوسعادة الجزائرية، فقد ارتبط هذا الأخير بمكان وأرض ليست أرضه ودافع عنها ضد بلده فرنسا، وفي هذا تجاوز لأنماط الكتابة الروائية التقليدية التي لعبت على وتر الشرق الذكوري والغرب الأنثوي مثلا... مثلما هو الحال في رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح وغيرها...

نص المداخلة:

1-**الأنا والآخر جدلية العلاقة/الحوار واللقاء**

ربما يستحسن بنا ونحن نتغيا الولوج لحالة الكتابة الروائية العربية المعاصرة في طرح العلاقة بين الأنا والآخر التي دائما ما وسمت بالإشكالية وبالجدلية، أن نستذكر تلك المقولة المعروفة المنسوبة للشاعر الانجليزي: **روديارد كبلنغ (Rudyard Kipling) 1865- 1930**: "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا". فمن بين المعاني التي يمكن أن نستشفها منها أن الحوار منعدم بين العالمين على الرغم من أن الشرق والغرب المقصودان لا يمثلان شيئا من كوننا في الشرق وهم في الغرب، بل هي مقولة عنصرية تستبعد كل القيم التي أرستها الأعراف والتقاليد والقوانين بين بني البشر. لهذا فهي محملة بفكر شوفيني وباحتقان وتعالي واحتقار ورؤية دونية للشرق المقصود، والإحالة من وجهة النظر فإن الشرق هو الحضارة العربية والاسلامية والغرب هو الحضارة الأوروبية والأمريكية.

فطالما نُظر إلى الشرق على أنه ضعيف قابع تحت سيطرة الغرب المستعمر والقوي الذي بيده مفاتيح الحضارة التي لا يملكها الشرق المتخلف المغلوب على أمره. الذي كان يمتلك كل مقومات التقدم إلا أن الدائرة دارت وأسباب التغيير دالت، وأصبح بفعل ما تقدمه الحضارة الغربية في عمومها تابعا قابعا في ظل ليس بظليل وإنما حرارة شمس الآخر بسطوعها تكاد تعمي الأبصار، لقد "كانت الحضارة الإسلامية عبر التاريخ في علاقة مستمرة مع الحضارات المجاورة، اليونان والرومان غربا، وفارس والهند شرقا، قبل الإسلام وبعده... واستمر ذلك في العصر الوسيط أثناء الاتصال الثقافي مع الغرب منذ الحروب الصليبية حين كانت الحضارة الإسلامية في أوجها يقرأ الصليبيون أنفسهم في مرآتها: التخلف في مرآة التقدم، والتعصب في مرآة التسامح ، والتوحش في مرآة التحضر والتمدن. وفي الفترة الأولى كان الآخر (اليونان والرومان وفارس والهند) معلما، وكانت الأنا (الحضارة الإسلامية الناشئة) متعلما. وأما في الفترة الثانية فقد كانت الأنا (الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي) معلّمًا، وكان الآخر (الغرب في العصر الوسيط مُتَعَلِّمًا). ثم جاءت العصور الحديثة بفترة ثالثة أصبحت الأنا فيها متعلما، والآخر معلما كما كان الحال في الفترة الأولى."[1]

---

[1]- حسن حنفي: جدل الأنا والآخر دراسة في ((تلخيص الإبريز)) للطهطاوي/الطاهر لبيب: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، آب/أغسطس 1999، ص ص283/284.

وفقا لهذا المنظور فإن الأنا عادت إلى سيرتها الأولى كي تتعلم من هذا الآخر الذي سبقها في كل المجالات، وهذا ما عرف في فترة الاحتكاك الثقافي بين الشرق والغرب الذي ترجمته المرحلة الموسومة: بالنهضة العربية...، لكن ما يهمنا الآن ونحن بصدد الحديث عن العلاقة التي تربط بين الأنا والآخر في هذه الألفية الجديدة، في مجال الأعمال الأدبية التي نظرت للآخر بطريقة مختلفة عن المتون السابق التي حملت في طياتها تساؤلات ترتبط بالهُوية في مقابل سيطرة الغيرية، وكذلك ما يصطلح عليه بالجنسنة أي الأنا الذكوري والآخر الأنثوي، وهذا ينطبق على الطرفين (فالعملية عكسية) حيث "يغزو الخطاب الغربي الشرق عبر ذكورية، ترمز إلى العلاقة العادية القائمة بين الرجل والمرأة، فالغرب قوي مهيمن، والشرق واهن سلبي، والأهم... ساحر، يتلقى المبادرة القادمة من الغرب، ويقبل الاختراق، ومن جهة أخرى قد نجد بعض المستشرقين، يصف الشخصية الشرقية بالشهوانية المفرطة، ويلحق بالعرب الممارسات الجنسية الشاذة (وفق فلوبير)."[2]

لازالت لحد الساعة تُطرح قضية العلاقة بين الأنا والآخر في العديد من المؤتمرات والصحف والكتب النقدية والأعمال الإبداعية، خاصة الرواية التي كثيرا ما تتناول هذه القضية مع التطورات الحاصلة على مستوى العالم من توترات، وحروب، وإرهاب، وحالة الاقتصاد التي لا تثبت على حال... وهذا نظرا لطبيعة العلاقة الرابطة بينهما، حتى وإن اختلفت الأدوار وتبدلت فإن الجدلية تظل قائمة وهي كائنة منذ وجد الانسان، نظرا لأن الوعي بالذات يستلزم لا محالة الوعي بالآخر، فلا يمكن أن يتم "تجاهل الدور الذي يضطلع به الآخر بشأن تصور الذات لذاتها، ولا يمكن تجاهل الصراع الذي يحصل بين الذات والآخر، فالآخر حاضر وبكيفية وجودية، إنه يشكل أفقا للذات وأحيانا جزءا من النظرة إلى الذات، بغض النظر عن الأشكال التي يتقدم فيها (شريك، مسالم، غاز، محتل)"[3]

وبعيدا عن كل الثنائيات التي تُعقدُ حَالَمَا يتم ذكر الأنا والآخر من قبيل: الشرق/الغرب، الرجولة/الأنوثة، التحضر/التخلف، المستعْمَر/المستعْمِر... سيتم التطرق إلى روايتين عربيتين الأولى لكاتب يمني معنونة باليهودي الحالي، والثانية لكاتب جزائري معنونة بـ: أربعون عاما في انتظار ايزابيل، وهما روايتان تناولتا العلاقة بين الأنا والآخر لكن بطريقة مبنية على الحوار والتقارب، واللقاء، والمحبة، والصداقة، والإيجابية... وكلها عناصر تصب في ما يمكن اعتباره انسانية الانسان

---

[2]- ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، مارس 2013، ص21.

[3]- نهال نهيدات: الآخر في الرواية النسوية العربية، في خطاب المرأة والجسد والثقافة عالم الكتب الحيث، عمان، الأردن، ط1، 2008، ص37.

التي تنأى عن كل تصادم وخلاف، فتسمو إلى حوار للحضارات مشكلة بذلك قيما للتسامح وللتقبل في آن.

1-1 رواية اليهودي الحالي والحوار الديني:

1-1-1 الأنا (فاطمة المسلمة)/الآخر (سالم) اليهودي:

صورت الرواية عبر صفحاتها علاقة طيبة جمعت بين اليهودي سالم والمسلمة فاطمة ابنة المفتي التي عاملته بكل لطف، حيث استبعد من السياق الذي نشأت فيه هذه العاطفة كل ما يمكن أن يجعل من فاطمة تحقد على سالم. بل كانت هي المبادرة في التعاطف مع سالم الذي كان يجلب لهم الحطب وكانت هي من تفتح له الباب عند مجيئه "لم تكن تمضي، بسرعة، لتهبني ما يقرره أبوها أو أمها، أو ما تقرره هي، من حاجيات مقابل ما آتي به. ترفع، قبل ذلك من قدْري: ((هكذا الرجال، وإلا فلا)). تكرمني بكلماتها، الداعية لي: ((بارك الله فيك.. أغناك وقواك.. حفظك.. حفظك)).".[4]

إن هذه الطريقة في التعامل لا تتأتى إلا من شخص تربى على قواعد صحيحة ثابتة وعالية، لأن حسن الأخلاق عملة نادرة تكون إلا في الذين كانوا روحانيين انسانيين بتصرفاتهم، وهذا ما برهنت عليه فاطمة التي لم تكن لتحتقر سالم لأنه يقدم لهم خدمات (خادم بسيط) ولم تنظر له نظرة ازدراء كونه يهوديا وليس مسلما.

وبالنظر إلى العنوان المختار للرواية فقد يفهم أن الروائي يريد به المرحلة الزمنية وهي الآن أي في الحال، لكن يتم تقديم المعنى فيما بعد عندما تقترب المسافة بين فاطمة التي تنعت سالم بالحالي أي الجميل وهي صفة مدح لمن كان جميلا، ولا تكتفي بذلك بل هو يَهُودِيُّهَا وفي هذا نوع من الغنج والدلع والتقرب والحنِّية...، ثم أن فاطمة تقرر تعليم سالم القراءة والكتابة ضُحى كل يوم كي تقترب المسافات أكثر وأكثر "((ألا يعلمونك يا يهوديَّ الحالي.. عندكم؟)).
أربكتني كلماتها، وهي تقولها بحنان وغنج لم آلفهما. فأنا يهوديُّها، أو اليهودي حقها. ليس هذا، فقط، بل أنا في عينيها مليح (حالي). حركت كتفي مستغربا سؤالها، فلم أكن أعرف معنى القراءة والكتابة."[5]، وأول كلمة تعرف عليها اليهودي الحالي اسمه س ا ل م سالم...، إن تعلمه للقراءة والكتابة جاء من حبه لفاطمة التي ما إن تنطق بالكلمة حتى يحفظ سالم صوتها، وبمرور الوقت

---

[4]- علي المقري: اليهودي الحالي، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط2، 2011، ص08.

[5]- نفسه، ص10.

يصبح سالم قادرا على القراءة والكتابة "في السنة الثانية من ترددي إلى بيت المفتي، صرت أجيد القراءة والكتابة باللغة العربية. بدأت أقرأ مخطوطات مختصرة في الفلسفة والفقه الإسلامي، وفي علوم الحساب. أعجبني كتاب في علم الفلك، وآخر في الطب، بدون عنوان. قالت فاطمة إنه لابن سينا، مع أنها ليست متأكدة، لعدم وجود اسمه عليه. ما فوجئت به هو وجود الأسفار اليهودية باللغة العربية بين هذه الكتب."[6]

تتأثث وفقا لهذا الطرح كل سبل التسامح التي تكرست منذ البداية لكي تميط اللثام عن بيت معتدل في التفكير ولا تحركه أي نعرات ضد الأقليات ممثلين في اليهود القاطنين اليمن، بل على العكس من ذلك فإن مقاصد الروائي قد تواشجت كي تجعل من السلام رمزا مثلته بكل اقتدار المسلمة فاطمة ابنة المفتي.

إنه مذهب فاطمة في التسامح ونبذ كل التعصبات، على الرغم من الاختلاف الديني كي تقفز على كل الحواجز المنيعة وعلى الرغم من أنها تكبره عمرا، إلا أنها أعطت درسا في نبذ الكره واحلال السلام، إنه الحب وحده فقط الذي يجعل من كل شيء له قيمة في عين المحب حتى وإن كان مختلفا لكسر النمطية التي تُرسخها الثقافات على اختلافها.

2-1-1 الفكر المتنور ضد الفكر المتعصب:

إن الجميل في الأمر –فعلا– هو ما أخذه سالم اليهودي عن فاطمة من معارف، ليأتي الدور عليه كي يعلم فاطمة العبرية (حيث كانا يتبادلان الكتب فيما بينهما هي تمنحه كتبا بالعربية مثل: رسائل لأبي بكر الرازي، والطبقات في شعراء اليهود الثقات، نهاية الإرب للنويري، ديوان الصبابة لابن أبي حجلة...، وهو يعطيها كتبا بالعبرية مثل كتاب الشبزي الشعري: الشموس والأنوار...). أي أن كلاهما تعرف على الآخر دون وسيط، وهذا ما عمق في العلاقة التي ربطت بينهما، حيث أن معرفة الأنا للآخر ومعرفة الآخر للأنا كانت صافية ولم تشبها أي شائبة، وما أسهم أيضا في التقارب بين المختلف حتى يصير مؤتلفا ثقافة فاطمة التي كانت متعلمة وقارئة للكتب مثل: الملل والنحل للشهر ستناني، الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف... وغيرها فتشربت معارفها وأدركت مضامينها فخبرت من خلالها أن لادين يعلو فوق دين الإنسانية، ويبرز هذا الطرح الذي يعضد حب فاطمة لليهودي سالم أولى الرسائل التي بعثت بها له بالعبرية والعربية، وكان أن جاء فيه لطف وود وتقرب وسؤال واستفادة من كل ما قيل عن كثرة اطلاعها تقول: "إلى اليهودي الحالي

---

[6]– الرواية، ص21.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سائر الأنبياء والمرسلين، والطيبات والطيبين.
حفظكم الله من الضياع، وجنبكم وحشة الغياب، وأرشد إلى طريق الخير خطاكم، وفتح على آمال الحياة قلوبكم وأذهانكم.
أما بعد فمع وحشة الفراق يصبح البوح والمداد هما الترياق. ولا ينجو اللبيب إلا بتذكر الحبيب.
وعليه فأنا اكتب إليك مبتدئة بالسؤال عن صحتك وأحوالك، ومهنئة لك بأعيادنا وأعيادك،. وأسأل الله لك ولكل اليهود والمسلمين، وكذلك لأتباع جميع الملل والنحل، ومن لا ملة له، سلامة الأيام وبهجة الدهر. ..."[7]

يرد عليها الحبيب سالم بعد مضي أَشْهُرٍ من تلقيه خطابها، نظرا لعدم قدوم المُزينة (نفحة) التي كانت بمثابة واسطة بينهما في نقل الرسائل، وقد كتبها بلغة الحبيبة وهي العربية على الرغم من أن لغته التي لا بد أن يقدسها هي العبرية وهو يعلم أن فاطمة قد تعلمتها، فمراعاة لشعور الحبيب يكتب بلغتها التي علمته إياها، يقول: "((باسمك أبدأ،
وبه أنتهي.

أما بعد، فيا سيدة الجمال والكمال، وخلاصة النساء والرجال، فرحت بوصول مكتوبك فرحة الولهان الذي شم فجأة رائحة من الجنة، أو عطر الريحان. فشكرا لحنان أصابعك التي سطرت حروف الحب والسلام، ونثرت عليها نقاط الرحمة والسلوان.

شكرا لإلهك إذ وهب لنا من رحمته اسمك، وأظهر لنا من صورته صفاتك.

ونحن لولا آيتك لنا في أن نبقى أحرارا لكنا بين يديك خاضعين، ولمشيئتك طائعين، وليس لغيرك متجهين. فلم نعرف من الحب والحبيب إلا حبك، ومن الود والودود إلا ودك، ومن الرحمة والرحيم سوى رحمتك، ومن السلم والسلام غير كلماتك، ومن الإسلام إلا مذهبك. ولم نعرف من الله سواكِ أنتِ... أدام قدرك وأعز مطلبك، وأطفأ أشواقي بقربك وعطفك. والسلام في الختام من يهوديُّك الذي لا ينام، شوقا وغراما.))"[8]

إن هذين المقبوسين يُغْنِيان ما ابتدأت به فاطمة في كرم تعاملها مع يهوديها الذي أفصحت عن ودها له، وهي لا تتوانى في كتابة رسالة لمحبوبها، بعد أن فرق البين بينهما لأسباب معروفة، ثم يعود خفقان الحب لقلبيهما عصفورين محلقين في سماء الحب ولا غيره يمكن أن يطفئ شوق المحبين إلا السؤال عن المحبوب، على الرغم من أن جو الشحناء التي كانت سائدة في ذلك الزمن والتعصب

---

[7]- الرواية، ص59.

[8]- نفسه، ص ص63/64.

الديني والصراع القائم الذي عبرت عنه الرواية في كم من موضع بين المسلمين واليهود –لليهود حي خاص بهم وهم أقلية مضطهدة–، إلا أن الجانب الذي غلب هو جانب الحوار والحب إنها رغبة الروح والعقل فقط.

يضاف إلى هذا الطرح ما أقدمت عليه فاطمة المسلمة من إبدائها للحبيب سالم رغبتها فيه وفي الزواج منه والهرب بعيدا عن مكان يضيق فيه اللقاء، لسيطرة المفاهيم المغلقة المهيمنة والمكرسة لعدم الاتفاق، والتعالي، وعدم التفاهم، والكره، والاحتقار... لكن تفتش فاطمة باعتبارها نموذجا للمرأة المطلعة الخبيرة والعارفة التي تنورت بنور العلم في كتب الفتاوى عن كل فتوى شرعية تجعل مما تقوم به شرعيا مباحا حلالا لا يخرج عن إطار الدين الإسلامي ولا عن تعاليمه حتى تبرر ما تفعله، وحتى لا تكون مثالا للمرأة الغبية المندفعة خلف العاطفة العمياء والغريزة الصماء "... اعلم عافاك الله أنني وهبت لك نفسي، حرة عاقلة، لتصبح زوجي إذا تجاوبت معي وأبلغتني بقولك: قبلت.

قراري هذا وصلت إليه بعد أن درست أقوال الشريعة ورأيت فيها بحر اختلاف يجمع علماء الإسلام بدون اتفاق. وكان دليلي لقراري الإمام الجليل أبو حنيفة الذي أبهجني بإجازته للمرأة البالغة الراشدة تزويج نفسها بدون ولي أمر، وزادني سرورا المجتهد اللبيب أبو المعارف بهاء الدين الحسن ابن عبد الله بفتواه المدونة في التصاريح المرسلة التي يجيز فيها للمسلمة الزواج من يهودي أو نصراني.

لقد اكتملت لدي الفتوى، فاتخذت العبرة، وعزمت بعدها على الحيلة بما يرضي الله ويماثل صفته، الله الخالق لنا كلنا: المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والهندوس والكفار.

أهب نفسي التي خلقها الله إلى أحد خلق الله، إليك أيها اليهودي الحالي. أهبك متعتي وبدني أخطب قربك، متعتك وبدنك. فإذا قبلت قربي وراقك بدني، فلا تتأخر عن نداء رغبتي، وتدبر أمر سفرنا من بلدة يضيق أهلها بلقائنا، ويحرمون زواجنا. وليكن مسيرنا إلى أبعد مكان يحط فيه الرحال..."[9]

على هذا الأساس فقد صدرت الرغبة من خلفية معرفية دينية تؤسس لهذا الارتباط الذي لا يقبله أصحاب المِلَّتَينِ مسلمين كانوا أم يهودا، وقد أوردت الرواية في كم من موضع عن إشكالية اللقاء، وأن اللقاء مصيره الانتحار مثلما حدث مع ابنة أسعد اليهودي نشوة وولد المؤذن صالح قاسم، حيث قضوا جميعا بمجرد هذا اللقاء، إلا أن هذا كله يمكن استبعاده لأننا وقفنا عند لقاء مختلف حيث الحبيبين ظلا وفيين طاهرين صادقين في حبهما الذي تأسس عن وعي ودراية وعن ثقافة وحسن

---

[9]– الرواية، ص75/74.

اطلاع، فكان الحل القفز على هذه الأعراف الخانقة والرحيل بعيدا لضمان نجاح اللقاء بين المسلمة فاطمة/فطيماه مصدر العطاء واليهودي الحالي سالم.

3-1-1 الآخر اليهودي الإيجابي/لا وطن له إلا فاطمة:

جاءت ملامح اليهودي سالم لتدل عن سلامة في الفكر ورجاحة في العقل، إذ لم نجده ولا حتى في موضع يحتمي بيهوديته أو يبدي رأيا صريحا واضحا في أمر يتعلق بالديانتين، أو فيما يتعلق بأرض الميعاد التي طالما ينحاز لها اليهود... كما لم نجده متعصبا ضد المسلمين أو حاقدا عليهم، ولم يقدمه الروائي بتلك الصورة النمطية المتمثلة في اليهودي المرابي البخيل، بل جعل من ديانته اليهودية مجرد صفة كما لم يجعل منه صهيونيا تحركه إيديولوجيا التموقع والدفاع عن لغته العبرية، أو أن يدافع عن فكرة بناء وطن قومي لليهود في قلب فلسطين –مثلما هو معروف–، بل جعل من صفائه ونقائه حَدَثا دون آثام. لتطغى على صفاته الجمال، والحب والعطاء، والسلامة، والسلام، والحوار، والوفاء، والشهامة، والرجولة...، فلا دين له إلا دين فاطمة الذي لا يفرق بين يهودي ومسلم مؤمن وكافر مسيحي ومجوسي... فحتى بعد أن فقد كل عائلته بدءا بأخيه ثم أمه ثم والدته لم يلتجأ إلا لفاطمة المحبة المعطاءة "فاطمة لم تكن وطني، بل هي، بالنسبة إلي، البديل من الوطن."[10]
لقد أبانت فعلا عن تعاليم الإسلام وساهمت في دخول سالم اليهودي الدين الإسلامي عن قناعة منه ودون إكراه من أحد، حيث أصبح يحمل اسم عبد الهادي "من أين لي بفاطمة أخرى، بأناس يشبهونها بإسلامهم؟ تساءلت وأنا أستعيد الكلام المذل الذي سمعته مئات المرات، فلا ينطق اسم يهودي إلا بعد الدعاء للمخاطب بالقول: ((أعزَّكم الله))، وكأنه سيسمع اسم إنسان ناقص، أو شيء غير عزيز أو كريم. ثم كيف يقبل توبتي؟ هل كنت كافرا؟ هل كنت كافرا وأنا في ظل فاطمة؟"[11]

فلا مذهب له في الحياة إلا مذهب فاطمة مثال الفكر المنفتح على الإنسان "أنا أعرف أنه يهودي، لكم دينكم ولنا ديننا. لا توجد مشكلة. كلنا من آدم وآدم من تراب... توجد كتب كثيرة في رفوف بيتنا، لو قرأها المسلمون سيحبون اليهود، ولو قرأها اليهود سيحبون المسلمين)). "[12]، على هذا الأساس يثبت الروائي ومن ورائه بطلته فاطمة أن ما يوجد من سوء فهم وما بُني على الأحقاد والتعصب الديني مصدره أمر واحد هو جهلنا وقصور عقولنا على احتواء الآخر، الذي تم الحكم عليه حكما مسبقا دون التغلغل فيه تقول فطيماه "أنتم أبناء عمومتنا، وأحبتنا في الله، وجيراننا"[13]، إن التقرب من

---

[10]– الرواية، ص35.
[11]– نفسه، ص105.
[12]– نفسه، ص16/15.
[13]– الرواية، ص22.

الآخر، أو محاولة معرفته من مصادر معرفية تنويرية قد تغير أحكامنا تلك. إذا كنا موضوعيين بتوسيع ثقافتنا حتى نستطيع أن نكون كوسموبوليتيين في كل تعاملاتنا.

2-رواية أربعون عاما في انتظار إيزابيل

2-1 هجرة الآخر إلى الأنا والاشتغال على السيرة:

يجعل الروائي من كلمات الشاعر الكَنَدِي فرنند واليت تصديرا لروايته. عندما سأله الكاتب التونسي خالد النجار لماذا تكتب؟ فأجابه الشاعر واليت: أكتب حتى أظل على علاقة بكل ما خفي عني. و يخيل لي أني أدرك عن طريق الكتابة ما لا أعرفه، ما لا أكتنهه. إذن الكتابة، هي بالنسبة لي فعل معرفة. أولا معرفة نفسي. فالكتابة تجعلني أكتشف نفسي، إذن بقدر ما أكتب أتعرف على نفسي. و بعد الكتابة، تكون معرفتي بنفسي قد ازدادت. كما تزداد أيضا معرفتي بالعالم، وذلك لأني كشفت عن اللامرئي فيما أدركت من المرئي. وذلك من خلال ما رأيته، ولاحظته. وهكذا أكون بممارسة الكتابة قد ذهبت ألقى أشياء لم يلقها أحد. وقد حذف منه الكاتب سعيد خطيبي وهذه هي وظيفة الشعر.[14] إذا كانت هذه هي وظيفة الشعر بحسب فرنند واليت فهل ينطبق هذا الأمر على الرواية بما أنها فن الحياة الممتلك لقابلية الانفتاح على كل الأجناس والأنواع الأدبية وغير الأدبية؟ هل الأمر سيان بينها وبين الشعر أم أن الجنسان لهما نفس الوظيفة؟ وهل هذا التصدير يعد افتتاحية تزيينية أو عتبة أولية يمر عليها القارئ فيأخذ انطباعا أوليا عن كون الروائي له اطلاع على أقوال للمشاهير وما هذا المقبوس إلا استعراضا لذلك؟ أم أن سعيد خطيبي يود تأسيس شعرية للرواية تقتات على ما تقدمه وظيفة الشعر؟ أم أن هذا التصدير يشي بأن الروائي سيقدم لنا معارف جديدة لم يكن لا هو ولا نحن القراء على معرفة بها طالما الكتابة تتأسس على كونها معرفة؟ إنها أسئلة قد تمر على خاطر من يقرأ الرواية ويراها شرعية كي يبدأ عملية تأويلية أولية تنطلق من عتبات النص حتى تصل لِكُنْهِهِ، يمكن الجزم أن عتبة العنوان كانت مغرية لحد ما، حتى يلج القارئ عوالم الرواية ليصطدم مرة ثانية بعتبة التصدير التي لعبت دورا محوريا في تعضيد ما قدمه العنوان، حيث جاءت الرواية لتقدم فرنسيا اعتنق الاسلام وعاش في الجزائر فترة طويلة من الزمن، وفي هذه الفترة يروي لنا رغبته الملحة في معرفة كل ما يتعلق بحياة ايزابيل إيبرهارت التي جاءت الجزائر عاشت فيها وماتت ودفنت فيها، وهذا لم يأت هكذا وإنما جاء بعد تحر وبحث ومعرفة ساهمت في الوقوف على عديد المحطات منها: التأريخ للجزائر قبل وبعد الاستقلال، كما أن الفرنسي المسلم قد صحح العديد من الافتراءات -على حد تعبيره- التي اقترفها المستشرق الفرنسي إتيان دينيه في حق أولاد نائل

14- أنظر: خالد النجار: سراج الرعاة (حوارات مع كتاب عالميين)، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، دط، فبراير2014، ص ص120/121.

وفي حق خضرة التي كتب عنها كتابا عنونه: خضرة، راقصة أولاد نائل "لست أتخيل خضرة سوى شابة ممتلئة أملا، طويلة القد، وبيضاء البشرة، تشبه إيزابيل إيبرهارت في غنجها المحتشم.. لقد حرف إيتيان دينيه حكايتها، نزع منها صفاتها الإنسانية وجعل منها عاهرة وفقط، أحببت لو أن إيزابيل كتبت عنها، بصدق وحب، أفضل من ذلك الرسام البارسي فقير الحس والخيال..."[15] فكان الروائي ممثلا في الحاج جوزيف الذي يريد كتابة سيرة حياته، وأن يخلد سيرة عشيقته إيزابيل ناقدا له ومساهما في تصحيح العديد من الأخطاء المفتعلة خاصة ضد أولاد نايل، ففكر في الكتابة وهو على عتبات السبعين من العمر حتى ينصف التاريخ ويروي أحداثا عاشها طيلة أربعين سنة في وطن ليس وطنه ومع أشخاص لم تربطهم به أي صلة، ليتحايل على الزمن ويدرب نفسه على النسيان، لكن على الرغم من ذلك فقد كانت له مشاريع كثيرة في الأرض الجديدة من بينها: معارضة كتاب إيتيان دينيه سابق الذكر يقول: "لو يطيل الرب في عمري فسوف أتم مشروعا فكرت فيه، وأكتب رواية، أعنونها: ((خضرة تهز ردفيها وتلوح لعشاقها)). قد يبدو العنوان إكزوتيكيا، لكنه ليس أكثر إيكزوتيكية من عنوان ((خضرة، راقصة أولاد نائل)) لذلك الرسام المتحزب إيتيان دينيه، الذي كنت أعيد رسم لوحاته، في شبابي، وسرعان ما أتخلص منها في سلة المهملات، كان يدعي محبة الناس ويمقت، في عمقه، قبيلة ((أولاد نائل)) العريقة ويسخر منها، يصور رجالها كقَوَّادِين ونساؤها كعاهرات."[16] وكان هذا على سبيل التخييل كون الروائي قد استتر خلف اتيان دينيه نَفسه بتقديمه على أساس أنه الحاج جوزيف رينشار الرسام الذي يبحث في سيرة إيزابيل إيبرهارت "... لأرتبط لاحقا، على سبيل الصدفة، بكتابات إيزابيل إيبرهارت، بعدما عثرت على مخطوط نادر لها، في بيت المرحوم سي مصطفى، الموظف السابق في دار البلدية، تحكي فيه جزءا معتما من يومياتها الصاخبة، قايضته إياه مقابل مروحة كهربائية، أعدت ترتيب أوراق المخطوط، الذي سهت عنه المطابع، دققته،..."[17] ليقوم بتكريمها بلوحات فنية إلى جانب من رسمه للمدينة وأهلها، فكان البحث والتنقيب في سيرتيهما للوقوف على بعض الحقائق التي رأى من الواجب الوقوف عليها، وهذا ما نلمسه في علاقة الصداقة التي جمعت بين جوزيف رينشار الرسام مع سليمان الجزائري في الرواية، وما نجده متحققا في الواقع من خلال الصداقة الحقيقية بين الحاج نصر الدين/اتيان دينيه وسليمان بن إبراهيم الذي كان صديقه ورفيق دربه، وفي هذا دلالة على اتكاء عمل سعيد خطيبي على أدب الرحلة في تقديم عالمه الروائي. وربما يتجلى الملمح التجديدي الذي يمكن أن يعد أمرا قد قلب ما

15- سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2016، ص51.

16– نفسه، ص45/46.

17– الرواية، ص14.

يمكن أن يُكَوِّن نوعا من الحيرة لدى المتلقي: هو اعتماد جل الروايات على هجرة الأنا صوب الآخر وليس العكس "لقد هجرت بلدي، ولم أعد أعرف عنه شيئا، مثل إيزابيل التي لم تعرف شيئا عن بلدها الأصلي روسيا، لست أعرف فعلا ماذا يحصل وراء البحر، ولا كيف يعيش الناس..."[18] وهذا ما قدمته الرواية، حيث جاء الآخر من الضفة الأخرى ليجعل من الجزائر مكانا بديلا له معتنقا الدين الإسلامي ومتحدثا لهجتهم ولغتهم متعايشا معهم، في مفارقة صارخة لتقدم للقارئ في المقام الأول درسا في حوار الحضارات بدلا من صراعها.

2-2 الأنا (سليمان) الجزائري/الآخر (الحاج جوزيف) الفرنسي تقارب ولقاء:

في هذه الرواية يتعرف القارئ على يوسف أو جوزيف رينشار الفنان الفرنسي الذي استهواه البحث في مذكرات وتفاصيل حياة ايزابيل إيبرهارت المرأة المسترجلة، التي قضت ودفنت في عين الصفراء إحدى المدن الجزائرية، يحكي قصته وقصتها وقصة المدينة أيضا، حيث تخبر الرواية عبر فصولها عن جوزيف الذي شارك في الحرب العالمية الثانية، ونال العديد من الأوسمة "وسام المناضل، وسام جوقة الشرف وميدالية الفارين، التي منحت لي تكريما لشجاعتي في الفرار من معتقل ألماني..."[19]، ثم ترمي به مجاهل الأيام التي لم يضع لها حسابا أن يأتي للجزائر بدعوة من صديق له اسمه سليمان، الذي كان عنصرا من عناصر الكتيبة التي يشرف عليها جوزيف "... وصلت إليها شتاء 1951، بدعوة من شاب سيصير رفيقي وشريك وجودي، والذي تعرفت عليه جنديا في الكتيبة التي كنت أقودها سنوات الحرب العالمية الثانية..."[20] ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد فصداقتهما كانت حميمة جدا، فهما يعيشان مع بعضهما البعض تحت سقف واحد يقتسمان فيه كل ما يمر بهما جيدا كان أم سيئا، بل أصبح من أهل الوطن الجديد يأكل مأكلهم زفيطي، شخشوخة... ويلبس ما يلبسون الشاشية على رؤوسهم والبرنوس... بل إنه دخل الإسلام وأصبح يقيم الصلوات وما ارتبط من عبادات بالدين الإسلامي وهو يقارن نفسه بإيزابيل إيبرهارت التي ولع بها، والتي قضت في عين الصفراء جراء فيضان جرفها وهي كذلك جاءت أرض الجزائر واستقرت بها ولم تغادرها يقول: "مع أني اكتسبت خطوة أفضل منها لما حفظت حزبا من القرآن وتعلمت لغة العرب أحسن منها. صرت أكتبها قليلا وأتكلمها كثيرا وأسب وأشتم بها بإتقان، بدل الفرنسية التي ظلت تلجأ إليها دائما كلما استفزها أحد ما، حصل أني بذلت جهدا أكبر مما بذلت، وتعلمت العربية، على يد الشيخ البردعي في المسجد الكبير، الذي نطقت فيه الشهادتين، على اللوح وبالكتابة بالصمغ،

---

[18]- الرواية، ص141.

[19]- نفسه، ص21.

[20]- نفسه، ص14.

علمني الشيخ البردعي، بصبر وحكمة، حروف الهجاء والأسماء والأفعال، وكنت أدفع له كل نهاية شهر ورقة 20 فرنكا، يفرح بها:

-بارك الله فيك يا سي جوزيف وكثر من أمثالك. كان يقول.

-البركة فيك يا ((سيدي)). العلم ما يتوزن بمال.

كنت أفرح كفرح طفل صغير يوم العيد بقدرتي على محادثة سليمان بلغته."[21]

يتأسس وفقا لهذا المقبوس كون الآخر بوجهة نظر الروائي حضر إيجابيا كونه استطاع أن يتأقلم مع مجتمع لا ينتمي إليه، بل على العكس من ذلك تماما فهو الفرنسي الذي اعتنق الاسلام وحج بيت الله الحرام "وأنا تركت دين والدي وأسلمت بعد بضع سنوات وذهبت إلى الحج، قبلت ستار الكعبة وصعدت إلى جبل عرفة، ودعوت الله: ((اللهم اغفر لي إني كنت من الظالمين!))"[22]، وكان تعلمه للغة العربية يفرحه كونه سيتواصل مع رفيق دربه وصديقه الوحيد سليمان بلغته، لأن العلاقة بينهما تجاوزت كل الأنانيات الضيقة والخلفيات المتحجرة والميتة التي تغلق باب الحوار وتقدم أحكاما عامة على الجميع دون مراعاة أن هناك من يمكن أن نتواصل معهم، حتى وإن كانت الظروف والأسباب غير ملائمة وغير مهيئة أصلا، فمثلا الظروف التي تعرف فيها هذان الرجلان ظروف سوداء لأبعد الحدود، فسليمان كان جنديا في الجيش الفرنسي أي كان مجبرا على ذلك أيام التجنيد الإجباري للجزائريين للتضحية بهم أمام الألمان وتقديمهم في صفوف الموت، أما جوزيف رينشار فهو فرنسي مستعمر ربما مسيحي أو يهودي أو لا يدين بأي دين، لكن يتم خرق الميثاق الذي يخضع لتراتبية منطقية تتأسس على كونهما لن يلتقيا أبدا، فالآخر هنا متعدٍ على الأرض مستدمر مغتصب متعالي محتقر طامس للهوية ماحٍ لتعاليم الإسلام، والأنا مضطهد محتقر منزوع الحرية، إلا أن العلاقة بينهما كانت أكبر مما يمكن أنه قد يخطر على بال القارئ من تنافر وعداء وكره وحقد، إن الرباط بين الحاج جوزيف وسليما قوي جدا "كنا مشدودين لبعضهما البعض في أربعة عقود، ((رأسي ورأسه في شاشية واحدة)) كما يقول المثل، ((موسى واحدة تذبحنا))."[23]

ناهيك عن كل ما قدمه الحاج جوزيف لأبناء المنطقة من مساعدات في أفراحهم وأتراحهم ومخالطته الناس وعدم التكبر عليهم واعتبارهم أصدقاء له، ثم أن جوزيف الفرنسي قد وقف في وجه أمته فرنسا المستعمرة ليدافع عن القضية الجزائرية، وقد أسهم فعله هذا زيادة اقترابه من صديق العمر سليمان "ثم قربت بيننا حرب الجزائر، يوم وقفنا معا إلى جانب المجاهدين أو ((الفلاقة)) كما يسمونهم، نقلنا

---

[21]- الرواية، ص27.

[22]- نفسه، ص36.

[23]- نفسه، ص144.

سلاحا ورسائل وآوينا مناضلين وطنيين، جنَّبنا بعضا منهم السجن."[24] ، وأمثلة صور الحاج جوزيف الفرنسي المسلم في إيجابيته عديدة في الرواية.

[24]– الرواية، ص83.

خاتمة:

عمد الروائيون العرب في الألفية الأخيرة إلى تغيير نمط الكتابة الروائية بغية تقديم عالم أكثر انفتاحا، ومحبة، وتواصلا، نافين بذلك فكرة: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا، فجاءت صورة الآخر مجانبة لنمطية بنائها السابق وتقديمها للقارئ وفق نظرة إنسانية شاملة، فتم تعبيد سبل الالتقاء والتفاهم والتسامح والسلام، وهذه ميزة تدعوا من الكل إلى تكريسها والسير على منوالها، لأن الأمثلة من هذا النوع تسهم بشكل لافت في تغيير جمود الفكر وتقريب وجهات النظر وإحلال ثقافة ارتقاء بالقيم (السالفة الذكر) وتكريسها، حتى يعم الخير والأمان مقابل الكره والتعصب.

في رواية اليهودي الحالي يخرج من معطف الكره واضطهاد الأقليات اليهودية عالم روائي مغاير تماما لما هو في الواقع، بتقريب المسافة عن طريق الحب بين مسلمة ويهودي ويتم اللقاء بطريقة كانت المعرفة هي سلاح التعرف على الأنا والآخر، دون الركون إلى خلفيات تجعل من التقارب مستحيلا من عواطف الكره والاحتقار... فتولد من رحم الأزمة علاقة طيبة في انسانيتها وتراحمها..

أما رواية أربعون عاما في انتظار إيزابيل، فقد ضرب لنا الروائي مثلا آخر في حوار الحضارات على الرغم من صراعها في ذلك الزمن، فالجزائر المسلمة محتلة من المستعمر الفرنسي، إلا أن الروائي أقام علاقة صداقة حميمة بين الأنا المسلم المُسْتَعمَر والآخر المعادي المسيحي المُسْتَعْمِر، فخلق بذلك جوا من التسامح قوامه المحبة والرفقة، جاعلا من المسيحي يشهر إسلامه ويغوص في واقع المجتمع الجزائري ويتخلى عن هويته، ووطنه، ودينه، وأهله لصالح صداقته مع سليمان العربي الجزائري المسلم.

الروايتين لم تمنحا للقارئ عالما حالما مثاليا في كل تفاصيله، إذ لم تغب جدلية العلاقة بين الأنا والآخر في كلا العملين وهي –كما هو معروف– مبنية على قطع جسور التواصل دون مدها وتشييدها، لكن طريقة تقديم هذا اللقاء بين الأنا والآخر تم في ظروف مختلفة وقاسية فكأن الروائيين أرادا القول أن من الكره والحقد والتعصب قد يكون هناك أمل يتولد من المهمشين والناس العاديين في إرساء حوار يكون مَثَلاً سائرا..

قائمة المصادر والمراجع:

1- حسن حنفي: جدل الأنا والآخر دراسة في ((تلخيص الإبريز)) للطهطاوي/الطاهر لبيب: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، آب/أغسطس 1999.

2- ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، مارس 2013.

3- نهال نهيدات: الآخر في الرواية النسوية العربية، في خطاب المرأة والجسد والثقافة عالم الكتب الحيث، عمان، الأردن، ط1، 2008.

4- علي المقري: اليهودي الحالي، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط2، 2011.

5- خالد النجار: سراج الرعاة (حوارات مع كتاب عالميين)، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، دط، فبراير 2014.

6- سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2016.